محمد علي آذرشب*

خطاب الحبّ في الأدب العرفاني
بين إيران والأندلس

ملخّص

حضارة المسلمين تقوم على الحبّ، فالحبّ أساس العلاقة بين «الله» و«الإنسان»: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ وأساس العلاقة بين الرجل والمرأة: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ وبين الإنسان وأخيه الإنسان: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ .

والحبّ يملأ دواوين شعراء الدائرة الحضارية الإسلامية من عرب وفرس وترك وهنود، بل نجد عند كبار الفقهاء والصالحين شعرًا يموج بحرقة الحبّ من مثل الشريف الرضي وابن داود الإصفهاني وغيرهم كثير.

ونرى العرفاء بشكل خاص، وهم الذين سعوا لأن تكون نفوسهم وأرواحهم سامية كما أراد الله ، يعبّرون عن أعمق معاني الحبّ في أشعارهم. وفي هذا المقال ركزنا على خطاب الحبّ في الأندلس متمثلاً بلسان الدين بن الخطيب وقارناه بخطاب حافظ الشيرازي في الموضوع نفسه وكلاهما من رجال القرن الثامن الهجري، ليكون معلمًا من معالم وحدة الدائرة الحضارية الإسلامية.

---

* - أستاذ في جامعة طهران.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

● محمد علي آذرشب

الحبّ والعشق

الحبّ عاطفة مشتركة بين جميع البشر، وليس فكرًا تتعدد فيه المدارس، لكن الملاحظ ظهور مايشبه المدارس الفكرية في الحبّ.. وهذا من العجيب ! فثمة الحبّ العذري والحبّ الحسّي والحبّ الأفلاطوني والحبّ الصوفي و..

وأغرب من هذا ماذهب إليه بعضهم حين تحدث عن انتقال ألوان من الحبّ من اليونان إلى الشرق[١].

وتحدث آخرون عن ارتباط ألوان من الحبّ بأجناس بشرية خاصة، وكأنه لا يرتبط بعاطفة إنسانية مشتركة بين البشر[٢].

والواقع أن كتب التراث العربي التي تحدثت عن الحبّ لم تبلور مفهوماً واضحاً لهذه العاطفة الإنسانية بل تناولت الحبّ ابتداءً من وصف «العشّاق العفيفين» إلى «العشاق الماجنين»، وهذا الخلط هو الذي أوحى إلى بعض المستشرقين فكرة حسية الحبّ في التراث العربي.

ومهما تعددت الآراء في الحبّ، فأعتقد أن ماقيل وما كتب عنه لا يخرج عن هذه الأمور.

إما حديث عن علاقة حبّ بين جنسين لا يرتبطان جسديًا، ويظلّ العاشق في لوعة وحرقة تجاه المحبوب وهو الذي يسمى بالحب العذري أو الافلاطوني.

وإما حديث عن حبّ صوفي يعبّر فيه العاشق عن حبّه لله والفناء فيه.

وإما حديث عن غريزة جنسية تحرّك الإنسان في اتجاه معيّن كما تحرك سائر الحيوانات الأخرى، مع فارق بين حياة الإنسان وحياة سائر الأحياء.

وإما حديث عن شعور يلتهب في وجود الفرد يدفعه إلى حبّ الجمال في كل شيء من جمال الإنسان وجمال النفس الإنسانية وخصالها الكريمة، إلى جمال القيم الإنسانية، وهي «النظرية الجمالية» للحب.

الحبّ العذري يتخذ معنى خاصًا في الأدب الفارسي، فالعلاقة بين مجنون وليلى هي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

علاقة ترمز إلى انجذاب الإنسان نحو الجمال، كالعلاقة بين الزهرة والبلبل كما يأتي، وليست علاقة حبّ مقرون بالحرمان واللوعة والفراق.

والحبّ الصوفي إذا كان المقصود به حبّ الجمال المطلق باعتبار أن الله سبحانه هو الجميل المطلق فيلتقي مع النظرية الجمالية للحبّ، وإن لم يكن كذلك فليس من مقولة الحبّ، بل هو أقرب إلى الرياضات النفسية والروحية.

وحصر الحب في الغريزة الجنسية، وإن كان يلامس واقع الإنسان، لكنه يلامس جانب الواقع البهيمي أو الطيني بالتعبير القرآني للكائن البشري، ويجهل الجانب الروحي المتسامى منه الذي عبّر عنه القرآن بالروح الإلهية.

والنظرية الجمالية للحبّ هي التي تناولها بالتفصيل الغزل الفارسي، والملاحظ في الأدب الفارسي أن كلمة «الحب» غير موجودة، بل يوجد مكانها كلمة «عشق»، والعشق هنا لا يعني الا الشعور الملتهب الذي أشرنا إليه، والغزل الفارسي لا يخرج عن هذا الإطار[٣].

أما المغامرات والممارسات الجنسية فلا علاقة لها في الأدب الفارسي بالعشق ولا بالغزل.

ومن الطريف كذلك أننا نجد مثل هذا المنحى على لسان أعرابية علّقت على ما وُصف لها من رغبة حسية لدى المحبين فقالت: هذا ليس بعاشق ولكنه طالب ولد[٤].

التفريق بين «العاشق» و«طالب الولد» يعني اختلاف الحبّ من حيث المنطلق والأهداف عن الغريزة الجنسية البحتة.

والملفت أن التراث العربي ينقل لنا معنى العشق بأفضل صوره على لسان أعرابية أيضًا، إذ يقول الأصمعي : سألت أعرابية عن العشق فقالت: جلّ والله عن أن يُرى، وخفي عن أبصار الورى، فهو في الصدور كامن ككمون النار في الحجر، إن قدحته أورى، وإن تركته توارى.

وهذه النار الكامنة في الصدر هي مظهر حياة القلوب في الأدب الفارسي ولولاها

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ما كان القلب سوى حفنة تراب. يقول الشاعر وحشي بافقي:

هرآن دل را كه سوزي نيست دل نيســـت
دل افســـرده غير از مشـــت گـــل نيست
الهـــى سينـــه اى ده آتـــــــش افـروز
در آن سينه دلى وآن دل همـــــــه ســـوز

أي: «القلب الذي ليس فيه لهيب ليس بقلـــــب / القلب الكئيب ليس سوى قبضـــــة طين / اللهم أعطني صدرًا مشتعلاً / وفي هذا الصدر قلبًا كله حـــرقـــة ولهيب».

وأظن أن ما ينقله تراثنا عن هذه الأعرابية أو تلك يعبر عن حقيقة هامة هي أن الحديث عن الحبّ فطري، يستطيع كل إنسان أن يفهمه دون الدخول في الأقوال والمدارس الفكرية المختلفة.

هذه النار الكامنة في الصدور على حدّ تعبير الأعرابية، وهذا اللهب الذي يملأ القلب والاشتعال الذي يغمر الصدر يحسه كل عاشق للجمال والكمال.

يحسّه عاشق جمال الطبيعة وعاشق جمال العلم وعاشق جمال الأدب وعاشق جمال الفن وعاشق جمال الإنسان. فالعشق كامن في الصدور، مثل كمون النار الملتهبة في وسط الحجر، لا يمكن لهذه النار أن تظهر إلا بحركة فاعلة (القدح)، وإن انعدمت الحركة خبت هذه النار.

وهذه الحركة الفاعلة عند العرفاء هي خروج الإنسان من ذاته.. وإذا كسر صنم الذات انطلق في رحاب الجمال المطلق والحكمة المطلقة والعلم المطلق والرحمة المطلقة... تحرك نحو صفات الكمال والجمال بلهفة، لأنه أصبح عاشقًا.. وهذا العشق يجعله يحسّ بطاقة عظيمة تملأ وجوده فتدفعه على طريق كل صفات الجمال والجلال في حركة لا متناهية.. أي تحركه نحو الله.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كل عشّاق العلم الذين أفنوا وجودهم من أجل اكتشاف المجهول، وكل عشّاق الفن الذين قدموا للبشرية روائعهم الخالدة، وكل عشّاق العدل الذين قدموا أنفسهم قرابين على طريق مقارعة الظالمين، وكل عشّاق الكمال النفسي الذين سجلوا أروع صفحات الإيثار والرحمة، وكل عشاق جمال الطبيعة والإنسان.. لهم جميعًا منطلق واحد في عشقهم هو هذه النار الكامنة في الصدور التي تدفع بهذا الكائن البشري وحده من بين الكائنات إلى حركة تكاملية في شتّى المجالات.

وحتى لا أبتعد عن المفهوم الشائع في الأذهان عن العشق، وهو علاقة الانجذاب بين الرجل والمرأة، أقول: هذه العلاقة يمكن أن تكون من العشق. فالإنسان أجمل مخلوقات الله، فقد خُلق ﴿في أحسن تقويم﴾ بالتعبير القرآني، وجماله بل جمال الأنثى بشكل خاص، هو خلاصة لجمال الكون. فهي - سواء كانت الام أو البنت أو الزوجة - فيها الحنان والرحمة والودّ والسكن والطمأنينة والألفة، إضافة إلى مايتحلّى به جسد الإنسان من تناسق واعتدال وسحر يكاد يفوق سحر كل مافي الطبيعة من جمال.

لذلك كانت الأنثى وراء كل حركة تكاملية في المجتمع.. لأن جمالها يوقظ في القلب ذلك الحسّ نحو الجمال المطلق، أو يقدح في الصدر تلك الشرارة الكامنة مثل كمون النار في الحجر على حدّ قول الأعرابية. وما يقال إن وراء كل رجل عظيم امرأة يمكن فهمه على هذا الضوء، وهكذا الأحداث العظام في العالم كان للمرأة فيها دور كبير.

ولذلك أيضا نرى العشاق يتغزلون بالمرأة بأسلوب يظهر ما في قلوبهم من شوق ملتهب، وما في صدورهم من هَمّ ثقيل، يدفعهم باستمرار للتخلص من الذاتيات الضيقة ومن الأهداف التافهة ومن الارتماء في البطر والراحة.

من هنا يمكن أن تكون العلاقة بين الذكر والأنثى علاقة حبّ أو عشق ذات منطلق جمالي، ويمكن أن تنأى عن هذا المنطلق وتتحول إلى علاقة غريزية بهيمية بحتة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ابن الخطيب

لسانُ الدين بن الخطيب أبو عبد الله محمد بن عبدالله بن سعيد، ولد سنة ٧١٣هـ، بالقرب من غرناطة لأسرة يمنية. فُتحت موهبته الشعرية مبكرة، ومدح سلاطين بني الأحمر، ولاّه السلطان أبو الحجاج رئاسة الديوان، ثم أصبح وزيرًا، وارتفع شأنه فلُقّب بذي الوزارتين: السيف والقلم.

شَعَرَ ابن الخطيب أنّ هناك من يتآمر عليه، ومنهم تلميذه ابنُ زَمرَك، فرحل إلى فاس، لكنّ خصومه استمروا في الدسّ عليه، فعقدوا له محاكمة في فاس حضرها ابن زمرك الذي اتّهم أستاذه بالكفر، لما أورده في كتاب *روضة التعريف* من آراء عرفانية وأفتى بقتله، فقُتل في السجن وأحرقت جثّته ظلمًا وعدوانًا!!

حافظ الشيرازي

أعظم شعراء الغزل في إيران على الاطلاق، ومن كبار شعراء القرن الثامن الهجري، (ت ٧٩١هـ) في شيراز، وجمع في ديوانه فني سعدي ومولانا جلال الدين.

سمي حافظًا لأنه حفظ القرآن واستوعبه وتمثله في وجوده وفاضت قريحته من منهله، فهو ابن الحضارة الاسلاميّة، وثمرة من ثمارها. وحافظ الشيرازي خير من يعبرون عن معنى «العشق» في الأدب الفارسي.

القسم الأعظم من ديوانه حديث عن «العشق» ضمن مقطوعات تسمى «الغزليات» وكل غزلية تتكون من عدد من الأبيات (في حدود ٧ أبيات عادة) ذات قواف وأوزان متحدة، والبيت الأول مصرّع حتمًا، وكل بيت له معنى يكاد يكون مستقلاً عن غيره.

مقدمة كتاب *روضة التعريف*

كتاب *روضة التعريف بالحبّ الشريف* لابن الخطيب يشهد أن كاتبه أراد أن يرسم صورة للحبّ بمعناه العرفاني السامي.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

في مقدمة الكتاب يذكر منهجَه في الكتاب، وهدفَه من تأليفه، فيرفع من شأن الحبّ ولكنه يُشفق على «عشاق الصورة» لأن الباعث عليه شهوة بهيميّة، «وهَبْ أن الباعثَ لم يكن ذلك، فهو تعلّق بشيء زائل».

ويرى أن الحبّ الحقيقي «حبٌّ يُصعّدك ويرقّيك، ويخلّدك ويُبقيك، ويُطعمك ويَسقيك،ويخلّصك إلى ما فيه السعادة ممن يشقيك...»، وهكذا يسترسل في وصف الحبّ الحقيقي ليكون نظيراً للعشق في الأدب العرفاني الفارسي. ويدوّن في ثنايا الكتاب أشعاره بالمناسبة.

يقول: «*روضة التعريف بالحب الشريف*، ويحتوي على أرض زكية، وشجرات فَلَكية، وثمرات مَلَكية، وعيونٍ غيرِ مَبْكيّة.

الحبُّ حياةُ النفوس الموات، وعلّةُ امتزاج المركبات، وسببُ ازدواج الحيوان والنبات، وسرّ قوله عزّوجلّ: ﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ ليس (هذا) كالحب الذي دوّن فيه المدوّنون، ولعبت بكراة أقياسه صوالج الجنون، وقاد الهوى أهلَه بحبل الهُوْن، وساقت فيه المُنى للمَنون، حين نظرت النفسُ من سفلى الجنتين ، ورضيت الأثرَ عن العين، وباعت الحقَّ بالمَيْن[٥]، ولم تحصل إلا على خُفّي حُنين[٦].

وا رحمتا لعشّاق الصورة، وسبّاق ملاعب الهوى والهورة[٧]، لقد أكلفوا بالزخارف الحائلة، والمحاسن الرائقة الزائلة، وسِلَع الجبانة، وبضائع الإهانة. أزماتُ التمتع بهم قصيرة، والأنكادُ عليهم مُغيرة، فتراهم ما بين طعينٍ بعامل قدّ، ومضرّجٍ بدم خَدّ، وأسيرِ ثغرٍ قد أعوزه فداؤه، وسقيمِ طرفٍ سقيمٍ قد أعضَل داؤه، وما شئتَ من ليل يُسهر، ونَدابةٍ تُجهر، وجيوب تُشقّ.. وربما اشتدّ الحبلُ، وأصابَ النبلُ، فكانَ الخبلُ. قلوبٌ اشتغلت عن الله فَشَغَلها الله بغيره.

وَهَبْ أن الحبّ الجسماني لا تبعثُ عليه شهوةٌ بهيمية، ولا تدعو إليه قوةٌ وهمية، أليست الداعيةُ مرتفعةً والباعثة منقطعةً، وصورةُ الحسنِ دائرةً، وأجزاؤه المتناظمةُ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

متناثرة؟ أليس الجزء العنصري عائداً إلى أصله، أليس الجنسُ مقارنًا لفَصلِه؟! ولله دَرّ القائل:

لا تلتفت بالله يا ناظري ... لأهيف كالغُصُن الناضر
يا قلبُ واصرفْ عنك وهَمَ النقا ... وخَلّ عن سربِ حِمَى حاجر
ما السربُ ما البانُ وما لَعلَعٌ ... ما الخيف ما ظبي بني عامر[٨]
جمالُ مَنْ سمّيته داثرٌ ... ما حاجة العاقل بالداثر
وإنما مطلبُهُ في الذي ... هامَ الورى في حُسنه الباهرِ
أفادَ للشمس سناكَ الذي ... أعاره للقَمَرِ الزاهر
فالشُعثُ فالغُبرِ كمثلي أنا ... أتى مِنَ اجْلِ الأولِ الآخرِ
أصبحت فيه مغرَمًا حائرًا ... لله دَرّ المُغرَم الحائر

وقال أمير المؤمنين علي (رضي الله عنه) وقد نظر إلى قدح الماء لما أراد أن يشربَ وعن الاعتبارات أعربَ، فقال: «كم فيك من خدّ أسيل وطرفٍ كحيل ، فأواه مكررّة مردّدة، ووالهفاه معادة مجدّدة، على قلب أصبح يقلّب كفّيه على ما أنفق فيها وهي خاوية على عروشها ويقول ياليتني لم أشرك بربي أحدًا، وحسبنا مرارةُ الفراقِ ذُلاّ، وفقرُ الفَقْدِ فَلاّ[٩]، والغفلةُ عن الله شقاءاً محتومًا، والكآبة على الفائت شؤمًا».

صدّني عن حلاوةِ التشييع ... اتقائي مرارةَ التوديعِ
لم يقم أنسُ ذا بوحشةِ هذا ... فرأيتُ الصوابَ تركَ الجميعِ

وإن كانت الشهوة فأخسس بها داعية، وإلى الفضيحة ساعية، حسبك من حِمار يعلو بنداء المحبة نهاقُه.. أولى له ثم أولى له لو تأمّل محاسنَ الجسوم. ما أكذبَ رائدَها المُطري! وأخبثَ زُخرُفَها المُغري! وأقصرَ مدةَ استمتاعها! وأكثرَ المساوئ تحتَ قِناعها!

على وَجهِ ميّ مسحةٌ من ملاحة ... وتحتَ الثيابِ العارُ لو كان باديا

ماتَمَّ إلا أنفاسٌ تركُد وتخبث، وعللٌ تنشأ ثم تحدث، وزخارفُ حُسنٍ تعهد ثم

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تنكث، وتركيبٌ يطلبه التحليل بدينه، ويأخذ أثره بعد عينه، وأنسٌ بفقد، واجتماعٌ كأن لم يُعقد، وفراقٌ إن لم يكن فكأنْ قَد.

ومن سرّه ألا يرى ما يَسوءه ... فلا يتخذ شيئًا يخاف له فقدا
منغَّصُ العيشِ لا يأوي إلى دعَةٍ ... مَنْ كان ذا بلد أو كان ذا ولدِ
والساكنُ النفسِ مَنْ لم تَرضَ همتُه ... سكنى مكان ولم يسكن إلى أحدِ

وقلت وقد مات سكن عزيز عليّ أيام التغرّب، أسلّي عظم جزعي عليه:

ياقلبُ كم هذا الجفا والخفوت ... ذماك أسْتبقِ لئلاّ يَفُوت[١٠]
فقال لا قولَ ولا حولَ لي ... قد كان ماكان فحسبي السكوت
فارقني الرشدُ وفارقتُه ... لمّا تعلقتُ بشيء يموت

والزمان لا يُعتبر، وحاصلُه خبر، والحازمُ من نظر في العواقب، نظرَ المراقب، وعرفَ الإضاعة، ولم يجعل الحلم بضاعَة، إنما الحبّ الحقيقُ حبٌّ يُصعدك ويُرقّيك، ويخلّدك ويُبقيك، ويُطعمك ويُسقيك، ويخلّصك إلى مافيه السعادة ممّن يُشقيك ، ويجعل لك السكوت روضًا، وشربَ الحقِّ حَوضًا، ويجنيك زهرَ المُنى، ويُغنيك عن أهل الفقر والغنا، ويُخضعُ التيجانَ لنعلك، ويجعلُ الكونَ متصرّف فعلك. ليس إلا الحبّ ثم الوصلُ والقربُ ثم الشهودُ ثم البقاءُ بعدما اضمحلّ الوجود، فَشُفيت الآلام وسقطَ الملام، وذهبت الأضغاثُ والأحلام، واختُصر الكلامُ، ومُحيت الرسومُ، وخَفيت الأعلامُ لمن له الملك والسلام.

فالحذرَ الحذرَ أن يُجعل للنفس سيرُها ، ويفارق القفصَ طيرُها. وهي بالعَرَض الفاني متبطة، وبثاء الثقيل[١١] مرتبطة، وبصحبة الفاني مغتبطة، فالمرء مع مَنْ أحبّ، يموت المرء على ما عاش عليه، ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى علَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ، أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ، أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ وفي مثل ذلك قلت:

أعشاقُ غيرَ الواحد الأحدِ الباقي ... جنوُنكم والله أعيتْ على الراقي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

● محمد علي آذرشب

جُننتم بما يَفنَى ويبقى مضاضةً ... تُعذّب بعد البين مهجةُ مشتاقِ
وتربط بالأجسام نفسًا حياتُها ... مباينةَ الأجسام بالجوهرِ الراقي
فلا هي فازت بالذي عَلِقَت به ... ولا رأسُ مالٍ كان ينفعها باقي
فراقٌ وقَسْرٌ وانقطاعٌ وظُلمة ... فما البُعدُ عن عين السعادة يا واقي
كأني بها من بعدما انكشف الغطا ... صريعةَ أحزانٍ لذيعةَ أشواقِ..
فلا تطعموها السُمَّ في الشهدِ ضُلّة ... فذلك سُمٌّ لا يداوى بدرياق
بما اكتسبت تَسعى إلى مستقرها ... فإمّا بوفرٍ مُحسَب أو بإملاق
وليس لها بعدَ التفرّق حيلةٌ ... سوى نَدَم يذري مدامع آماق..
فَجِدّوا فإن الأمر جدّ وشمّروا ... وشيموا لها للحقّ لمحة إشراقِ..
وعاقبةُ الفاني اشرحوا وتلطّفوا ... بأخلاقها المرضَى تلطّفَ إشفاق
فإن سكرت واستشرفت عند سُكرِها ... لماهيةِ السُّقيا ومعرفةِ الساقي
أطيلوا على روضِ الجمال خطورَها ... إلى أن يقوم الحبُّ فيها على ساقِ
وخلّوا لهيبَ الشوق يطوي بها الفلا ... إلى الوجد في مسرى رموزٍ وأذواقِ(١٢)
فما هو إلا أن تحطّ رحالَها ... بمثوى التجلّي والشهود بإطلاق
وتغنى إذا ما شاهدت من شهودها ... وقد فَنِي الفاني وقد بقي الباقي
هنالك تلقى العيشَ تصفو ظلالُه ... وتنعمُ مِنْ عينِ الحياةِ برقراق
وما قِسمُ الأرزاقِ إلا عجيبةٌ ... فلا تطردِ السؤّال يا خيرَ رزّاق

أخذ الكلام في هذا الافتتاح حدّه، وبلغ النهر مدّه، فلنأخذ إثر هذا الذي سردتُ، في تقرير ما أردت، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب».

* * *

الحب بين ابن الخطيب وحافظ

بعد هذه الافتتاحية يستعرض ابن الخطيب في كتابه آراءه في الحبّ وأقسامه نقف هنا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عند أهمّ محاور الكتاب، ونقارنها بغزليات حافظ الشيرازي. لنبيّن أن خطاب الحبّ في الأدب العرفاني خطاب إنساني إسلامي، ويشكل معلمًا هامًا من معالم حضارتنا الإسلامية:

١ــ إضفاء صورة الحبّ على كل العلاقات الكونية

كل الموجودات تتحرك بالحبّ، فالحبّ هو دافع الإنسان والحيوان والجماد في كل ما يصدر عنهم من حركة تكاملية. وفي روضة التعريف نرى فصولاً تحت عنوان: «فصل منه في أنّ الوجود كلّه أصله المحبّة والعشق بإجمال قريب و«فصل في أن كلّ ما في الكون.. بل الوجود كلّه محبّ عاشق بتفصيل غريب».

والعلاقة بين أجزاء الطبيعة ليست علاقة تضاد وصراع كما تذهب إليه النظرة الماديّة، بل علاقة حبّ ووداد. ينقل ابن الخطيب من تراثنا الأدبي ما يذهب إلى هذا التصوّر للعلاقات بين أجزاء الطبيعة، من ذلك قول الشاعر عن النبات:

بكأس تُرينا آيةَ الصبح والدُّجا فأوّلها شمسٌ وآخرُها بدرُ
فياعجبًا للكون لم تَخْلُ مُهجةٌ من العشقِ حتى الماءُ تعشقه الخمرُ

وحافظ الشيرازي يرى العلاقة بين النبات والحيوان هي علاقة حبّ وعشق.. فالبلبل إنّما تعلّم أن يغنّي بعد أن أطربه جمال الزهرة يقول:

بلبل از فيض گل آموخت سخن ورنه نبود ايـن همه قول وغزل تعبيه در منقارش

أي: «البلبل تعلّم الإنشاد من فيض جمال الزهرة وإلاّ / ما كان كلّ هذا الكلام والغزل في منقاره».

٢ - الدعوة الى «الحياة» بالحبّ

إذا بقي الإنسانُ راسفًا في أغلال بهيميته فهو ميّت، وإذا تحرك نحو الكون الفسيح فهو محبّ عاشق.. وهو حيّ بهذا الحبّ. ومنسجم مع حركة بقية الكائنات من جمادات وحيوان ونبات. يقول ابن الخطيب: «الحبّ حياة النفوس الموات، وعلّة امتزاج المركبات، وسبب ازدواج الحيوان والنبات، وسرّ قوله عزّ وجلّ:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ﴾.

فالعرفان بدعوته إلى العشق يدعو ـ إذن ـ الى الحياة والحركة . وكل من لا يعمر قلبه بالعشق فهو ميّت يفتي حافظ الشيرازي بجواز الصلاة عليه ، يقول:

هر آن كسي كه درين حلقه نيست زنده به عشق
بر او نمرده به فتوای من نماز كنيد

أي: «كل من لم يكن في هذا الجمع حيًا بالعشق/ بفتواي أقيموا عليه صلاة الميّت وهو حيّ»..

٣- الدعوة إلى اجتماع المختلفين على مائدة العشق

العرفاء لا ينظرون إلى المختلفين في العقائد والاجتهادات والمدارس بنظرة التضاد بين هؤلاء المختلفين ، بل يرون أنهم عاشقون جميعًا للحقيقة، بعضهم أصابها وبعضهم أخطأ الطريق إليها. ابن الخطيب يعقد فصلاً أو غصنًا ـ بتعبيره - عن المحبين وأصنافهم، ويذكر في هذه الأصناف كلّ أصحاب الملل والنحل والمدارس الفقهية والكلامية من المسلمين وغير المسلمين، ويرى المنحرفين منهم أيضًا عشاقًا «وإن خاب مرادهم ، وضاع اجتهادهم».

ويقول عنهم أيضا:

الحبُّ حركهم لكل جدال والحبّ أقحمهم على الأحوالِ
والحبُّ قاطعَ بينهم وأضَلّهم عن نيل ماراموه كلّ ضلالِ
والحبّ أنشأ فيهم عصبيةً بالقيل أضرَمَ نارَها والقالِ

... وما منهم الاّ مدّعٍ في المحبّة، متهالك حريص على السعادة بزعمه ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ، عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴾ ممن قصد الحقّ فأخطأه، أو أراد الصوابَ فَضَل عنه».

وحافظ الشيرازي يرى أنّ الاختلاف بين المذاهب والفرق يعود الى أنهم طلبوا الحقيقة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولكنهم أضلّوا الطرق فسلكوا سبيل الوهم والخيال:

جنگ‌هفتاد و دو ملت همه‌را عذربنه چون ندیدند حقیقت ره افسانه زدند

أي: هذه الفرق الاثنتين والسبعين المتحاربة، اعذرهم في حربهم هذه. هؤلاء، إذْ لم يَرَوا الحقيقةَ، سَلكوا طريقَ الخرافة

٤- الدعوة إلى تحمّل المسؤوليات الثقيلة

العاشق بعد أن ينجذب إلى عالم الحبّ، يستشعر الأهوال والأعباء في الطريق.. وطريق النهوض بالأعباء الإنسانية محفوف بالمخاطر، والمسؤولية فيه ثقيلة: ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾. وهي عملية إعداد للإنسان المتحرّك على طريق الكمال، كي يكون متحلّيًا بالإرادة الكافية لتحمّل الأعباء ومواصلة الطريق.

ابن الخطيب ينشد في روضة التعريف بهذا المعنى فيقول:

وركائبٌ جعلوا الدليلَ أمامهم وسروا ففازوا بالذي قد أمّلوا
والليلُ متلفةٌ ومدرجةُ الهوى لا تستقلّ بها المطيّ الذُّلَّلُ
يا رحمةً للعاشقين تقحّموا خطرَ السُّرى وعلى الشدائدِ عوّلوا

وحافظ الشيرازي يبدأ ديوانه بهذا الإعداد لتحمّل الأعباء فيقول:

ألا يا أيها الساقي أدر كأسًا وناولها

كه عشق آسان نمود اوّل ولى افتاد مشكلها

أي: «فالعشق بدا في أوله سهلاً ثم وقعت المشاكل»

٥- دعوة إلى رؤية جمال الكون

حركة الحبّ في الكون ناشئة عن الجمال. والجمال مودَع في كل هذا الكون الذي أشرق عليه نور الله. يقول ابن الخطيب: «كل ما وقعت عليه حواس الإدراك مما يقيدها جنسه، أو يثير تعجبها جماله، أو يبهرها نورُه، أو يسوقُها حبّه، أو يروقها تناسبه

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وحكمته، ليس إلاّ نور الله الساري إلى الشيء منه بقدر قبوله، ووسع استعداده، ورَحْـبِ تلقّيه».

والإنسان لا يستطيع أن يرى المطلق، فيرى الجمال النسبي فيستثير فيه الأشواق نحو الجمال المطلق ويحنّ إليه. يقول ابن الخطيب: «والنفوس الجزئية إذا لمحته على صـفحات المدركات هامت، واشتد ولوعها، إذ أصلها وقوامها وعللها وعنصرها هو. فهي تحنّ إليه حنين الشيء إلى أصله. قال الشاعر:

رآهـــا نـــاظـري فصبـا إليهـــا وشبـهُ الشـــيء مُنجَـــــذِبٌ إليـــه

وقال:

أجارتنا إنا غـــريبان هـــاهنـــــا وكلُّ غريـــــبٍ للغـــريبِ نَسيـــب

وهذا يفسّر لنا مانراه من غزل عاطفي متوهّج في المرأة عند العرفاء والفقهـاء أمثـال الشريف الرضي وابن داود وابـن الخطيـب وابـن حـزم وسـعدي الـشيرازي وحـافظ الشيرازي ومولانا جلال الدين الرومي، والامام الخميني، فجمال المرأة عند هـؤلاء هـو رمز الجمال النسبي الذين يشدّ الإنسان بالجمال المطلق. لأن الانسان يحنّ دائمًا الى ذلك الجمال المطلق.

وعن ارتباط جمال الكون بالعشق يقول عنه حافظ:

درازل پـرتـو حسنت زتجلّـي دم زد
عشـــق پيدا شدوآتش به همه عالم زد

أي: «نور جمالك تجلّـــى منـــذ الأزل/ فظهر العشق وأضرم في العالم نارًا».

٦- الدعوة الى العشق الحقيقي

ثمة خلط كبير بين العشق الحقيقي، و«شهوات الجسد» في كتب الأدب والكتب الـتي تناولت موضوع الحبّ في التراث العـربي، ممـا حـدى بالمستـشرق دوزي أن يـزعم أن الجنس العربي لا يعرف الاّ الحبّ الحسّي وهو ما أنكره عليه آسين بلاثيوس.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لكننا نجد ابن الخطيب يفرّق بوضوح بين العشق والشهوة، بل يقسّم العشّاق الحقيقيين الى عشّاق الصورة وعشّاق الجمال المطلق.

يذكر ابن الخطيب دوافع الشهوة بلغة مَنْ يريد أن يبعدها تمامًا عن الحبّ يقول: «إن كانت الشهوة فأخسس بها داعية، وإلى الفضيحة ساعية، حسبك من حمار يعلو بنداء المحبّة نهاقه، ويقذفه على السباق اهتياجُه، وإلى السفاد اشتياقُه. أسيرُ خيال، وصريعُ مَبال، أولَى له ثم أولى ، لو تأمّل محاسنَ الجسومِ ما أكذب رائدَها المطري! وأخبثَ زخرفَها المغري! وأقصر مدةَ استمتاعها، وأكثر المساوئ تحت قناعها:

على وجه ميٍّ مسحة من ملاحة وتحت الثياب العار لو كان باديا

ثم يتحدث عن العشاق ويذكر «عشّاق الصورة»، وأعتقد أنه يقصد العشّاق العذريين الذين يهيمون بجمال الجسد، دون أن يتعدّوه الى مطلق الجمال، فيقول عنهم: «وارحمتا لعشاق الصورة.. فتراهم مابين طعين بعامل قدّ، ومضرّج بدم خدّ، وأسير ثغر قد أعوزه فداؤه ، وسقيم طرف سقيم قد أعقل دواؤه، وما شئت من ليل يسهر، وندابة تجهر، وجيوب تُشق.. وربما اشتد الحبل وأصاب النبل فكان الخبل...».

وأما العشق المطلق فهو الانطلاق من عشق الجمال النسبي إلى عشق الجميل المطلق وهو الله سبحانه. وابن الخطيب يذكر الحديث الشريف: «حُبّب إليّ من دنياكم ثلاث: الطيب والنساء وجُعلت قرّة عيني في الصلاة». ثم يرى أن هذا الحديث يناسب «من يسلك إلى حضرة الحق من باب عشق الجمال الجزئي، وقد جعلوه من باب الرياضة، لحصول المقصود، وقد أشار إليها الرئيس أبو علي رحمه الله إذ قال: ويُعين عليه العشقُ العفيفُ والحبُّ الظريف الذي تؤمَنُ فيه النفسُ سلطانَ الشهوة. فالفضلاء الذين يستدلون بالأثر على المؤثر، وعلى الحق بالخلق ، وعلى الصانع بالصنعة...

ويرى حافظ الشيرازي أيضًا أنّ مجنون ليلى قد أصيب بما أصيب به بسبب البرق الذي سطع من بيت ليلى، يقول:

برقي از منزل ليلى بدرخشيد سحر وه كه با خَرمَن مجنون دل افگار چه كرد

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أي: «لقد سطع من منزل ليلى في السحر برق/ آه، ماذا فَعَل ببيدر المجنون المسكين».

وهذا البرق الذي يتحدث عنه حافظ هو نفسه البرق الذي رآه موسى في طور سيناء. أي إنه مظهر من مظاهر الجمال الإلهي المطلق في هذا الكون يقول:

ز آتش وادي أيمن نه منم خُرّم وبس موسى آنجا به اميد قبسي مي‌آيد

أي: «لستُ وحدي جذلانًا من الوادي الأيمن/ جاء موسى على أمل قبس الى ذلك الوادي».

فليست ليلى إذن سوى مظهر من مظاهر الجمال المطلق. ولا يمكن الانطلاق نحو المطلق إلاّ بالإلهام من الجمال النسبي.

الهوامش:

١ - انظر: الجواري، أحمد عبد الستار، الحبّ العذري، دار الكتاب العربي بمصر ١٩٤٨ ص ٤٥ وهامشها. وفيه رأي المستشرق لوي ماسينيون الذي يرى أن الحبّ العذري عند العرب مقتبس من الحبّ الافلاطوني عند اليونان ومشتق منه. وهناك من يرى أن الحبّ العذري في نشأته متأثر بالعقائد الفارسية التي انتشرت في العصر الجاهلي في اليمن وشرق الجزيرة العربية. انظر: عبد الله، محمد حسن، الحبّ في التراث العربي، دار المعارف، القاهرة، بلا تاريخ، ص ٢٢٦ وما بعدها.

٢ - انظر: مكي، الطاهر، دراسات عن ابن حزم، مكتبة وهبة، القاهرة ١٩٧٦، وتجد فيه رأي ما سينيون الذي يرد ابن حزم في آرائه عن الحب العذري إلى أصول اسبانية ويفسره بالوراثة النفسية التي تعيد ابن حزم الى جنسه المسحبي الاسباني !! ودوزي يزعم أيضا أن الجنس العربي لا يعرف إلا الحبّ الحسّي وهو ما أنكره عليه آسين بلاثيوس.

٣ - انظر شميسا، سيروس، سير غزل در شعر فارسي (فارسي) ط ١ طهران، ١٣٦٢هـ . ش، ص ٢.

٤ - الحبّ في التراث العربي، ص ٧٣.

٥- المَين: الخداع والكذب .

٦- أي لم تحصل على شيء.

٧- الهلاكة.

٨- النقا وحاجر والبان ولعلع والخيف: أسماء أماكن وردت في غزل الشعراء .

٩- الفلّ: الانكسار والهزيمة.

١٠- ذماك: بقية مافيك من روح.

١١- ثاء الثقيل: إشارة إلى عينية ابن سينا في النفس وارتباطها بالجسد:

علقت بها ثاء الثقيل فأصبحت بين المعالم والطلولِ الخضّعِ

١٢- أي إن لهيب الشوق إلى المحبوب الحقيقي يحصل بعد أن تتخلص النفس من أخلاقها المريضة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com